

الأدب الإسلامي الحديث والنصوص القاصرة



بقلم: د. عبدالباسط بدر

من المشكلات التي نعانيها في أدبنا الحديث، الذي نريد أن يكون له وجه إسلامي مشرق هي أن عددا من ضعفاء المهوبة والقاصرين والمتسكمين على أرضية الأدب يحاولون إخفاء ضعفهم وقصورهم بالاختباء وراء المضمون الإسلامي ظلما لهذا المضمون وظلما للأدب. فيختارون موضوعات إسلامية حية يضعون بها نماذج هزيلة من الشعر والقصة. ولئن كانت المعاني الإسلامية تحرك مشاعرنا وتثير عاطفتنا فإن الهزال الفني في هذه النماذج يسيء إلى أذواقنا، ويجعلنا نشفق على هذه الموضوعات العظيمة من عبث هؤلاء المتأدبين ونتحمل أذى المضللين، الذين يشككون في علاقة الأدب بالإسلام، ويتخذون من هذه النماذج الضعيفة حجة لهم.

ولئن كانت النصوص الأدبية تتألق إذا بلغت قدرا رفيعا من استبطان النفس البشرية وقضاياها الحساسة ومشاعرها، فإنها لا تبلغ هذه الدرجة إلا إذا عرضت بأسلوب أدبي يخاطب ذوق القارئ ويدخل إليه من قلبه قبل أن يدخل إليه من عقله.

وهنا ينبغي أن نعلن حقيقة مهمة لا نمل من تكرارها وهي أن الموضوع وحده لا يصنع أدبا لأن للأدب أدوات فنية لا بد أن يستكملها النص ليسمى أدبا، والإسمي فكرا أو موعظة أو أي شيء آخر. فقد يستطيع مسلم صادق الإيمان وهب القدرة على التعبير أن ينشئ أفكارا إسلامية عن الله أو الكون أو الإنسان، وهذا إنتاج له وزنه في عالم الفكر، ولكنه إنتاج لا صلة له بالأدب. فالأدب ليس فكرة مجردة، ولا مفهومات مباشرة، وإنما هو كما يقول أحد النقاد: «الانفعال الذاتي الخاص بالأشياء والأشخاص والحوادث. الانفعال الذي تتلقاه كل نفس على طريقتها الخاصة في التلقي، وتتفاعل به في أعماقها، وتعاينها معاناة كاملة بكل جزئياته وتفصيله. ثم تخرج من هذه المعاناة بتجربة شعورية متوهجة تحمل السمات الذاتية لصاحبها، وتنقلها إلى الآخرين في صورة جميلة مؤثرة».

فهذا هو العمل الأدبي، وتلك هي أركانه: فالركن الأول الذي ينبغي أن نسأل الأديب عنه هو التجربة الشعورية، أي حقيقة الانفعال بالقضية التي يحملها، ومدى صدور هذه القضية عن ذات الأديب وأعماقه. والركن الثاني: هو شكل التعبير وأسلوبه، أي القالب الأدبي الذي حمل تجربة الأديب قصة كان أو مسرحية أو قصيدة، ومدى تطويع الأديب هذا القالب، وبراعته في استخدامه. ولا بد أن يستوفي القالب شروطه الفنية على أقل تقدير، وعلى قدر ما يستوفي من الشروط الفنية يكون قدر الحكم عليه: جودة ورياءة، ولا بد أن نسأل الأديب عن قاموسه اللغوي، وعن صورته وعن أسلوب العرض، وعن الإيقاع - إن كان القالب شعرا - وعن الحبكة والشخصيات إن كان مسرحية أو قصة، وعن الانسجام والتكامل بين هذه العناصر كلها، وعن علاقتها بالقضايا والمشاعر التي يثيرها النص.. ومن ثم نحكم على النص فندخله ساحة الأدب أو نغلق دونه الأبواب.

إن النصوص الأدبية التي تشكو من عيوب فنية، فتتقلها أساليب العرض التقريرية، وتؤديها خطابية حادة غير مقبولة أدبيا وإن كان مضمونها قضية من قضايا الإسلام. ونحن للأسف الشديد نجد هذه النصوص بوفرة في أدبنا المعاصر. كالقصاصد التي تصف - في تقريرية سقيمة - فضيلة الصدق أو ضرورة التمسك بالإسلام أو حتى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.. ولا خلاف أن هذه القصاصد متطرفة على الأدب على الرغم من أهمية موضوعاتها، ولا بد من إعادة صياغتها في قالب أدبي ينبض بالتجربة الشعورية الصادقة وينبض أيضا بأدوات العرض الأدبية الحية.

إن النصوص الأدبية التي تشكو عيوباً فنية معيبة بقدر ما فيها من العيوب ومرفوضة إذا لم تهض بها جماليات العمل الأدبي. إن هذه القاعدة تقول بصوت عال: إذا أردنا أدبا إسلاميا فلننتبه على أن يكون أدبا وإسلاميا في آن واحد، فمضمون النص لا يشكل درعا واقيا إذا غابت عنه القيم الفنية، المقاييس الفنية محكمة جنبا إلى جنب مع المقاييس العقديّة. وعظمة الإسلام تقتضي أن يكون الأدب الذي يحمل اسمه عظيما، وتقتضي من الأديب الذي يصدر عنه ويعالج قضاياها أن يصدر عن تجربة شعورية صادقة وأن يتزود بأحسن أدوات الأدب وأشدها تأثيرا في النفوس فشرف المعنى يقتضي شرف الأسلوب ■